رأسٌ / لغمٌ يقتل صاحبه!

الدكتور سهيل ادريس المحترم تحية اعتزاز وإكبار:

بعد أيام ينفذ منّي آخرُ قرص من حبوب الـMigril التي أستعين بها على آلام داء الشقيقة المزمن، وعندها ستبدأ مرحلةٌ جديدة من المعاناة؛ فالدواء غيرُ متوفّر في العراق، وإنّ جَلْبَ العلبة الواحدة من الأردن عن طريق الأصدقاء كان يكلّفني خلال الفترة الماضية مرتّبَ شهرٍ كامل، أما الآن فسعر العلبة يعادل مرتّبَ شهرين اثنين. وإنّ إصرار رأسي على مزاولة هذا النوع من الألعاب المميتة يعني التضحية برزق أطفالي وعائلتي، وأنا إزاء هذه الموازنة غير المتكافئة سأُضطرّ للرضوخ للآلام المبرِّحة في مقابل كفاف الخبز الذي يُبقي «يتاماي» على قيد الحياة.

ومع ذَوَبان هذا القرص الأخير في جوفي ستذوب آمالي باحتمال رفع الحصار قبل نفاذ خزيني من المسكّنات. وأرجو أن لا يُفهم من ذلك أنّي خلال سنوات الحصار الخمس الماضية كنت أحصل على حاجتي من الدواء بيُسْر؛ بل لقد اضطررتُ أن أُدخل يميني في فم الأفعى بحثاً عن الخرزة المبتلعة التي كنت أعثر عليها حيناً، وفي أحايين أخرى لا أحصل إلاّ على الخيبة مقرونةً بالمزيد من اللدغات.

بعد أيّام سوف لن أجد لآلام رأسي ما يسكنها، في حين سيجد أصدقائي الشعراءُ في بقاع الوطن العربي لرؤوسهم عشراتِ الأنواع من المسكرات التي أعرف أنّ حاجتهم إليها ليست ماسّة، وأنّ استخدامهم لها هو من قبيل التَرَفِ وقَتْلِ الملل.. أنا لا أحسدهم فسعادتي في سعادتهم، وعندما تحلّقُ رؤوسُهُمْ من نشوتها كالبالونات في الهواء يحلّق قلبي معها، وأنسى آلام الطحن التي يسبّبها لرأسي حجرا الرحى اللذان لا يتوقّفان أبداً.

أنا لا أحسد أصدقائي الشعراءَ في سعادتهم ولكنّني أُحسّ بالحزن عندما يُقرُّ لهم العالم الحقّ في أن يمتلكوا رؤوسَهُم ويتصرّفوا بها كيفما شاءوا بينما أُحْرَمُ من حقّ التصرّف برأسي إلى الحدّ الذي أُمنع من الحصول على عقار لتسكين ما يعانيه من نوبات تَستعصي على الوصف.

بعد أيام سأذكّرُ أصدقائي الأعزاءَ بأنّ رأسي هو رأسُ شاعر وأنّ أقصى ما يمكن أن ينتجه هذا الرأسُ هو عشرات الأطنانُ من الدموع، وأنه لا يصلح للنّطاح، وأنّ تركيبه الفسيولوجي والبايولوجي يختلف كلّ الاختلاف عن رؤوس التيوس والوعول بل وحتى عن رؤوس الملاكمين والمصارعين من البشر، وأنّه لا يطمح ان يرنو إلى الجموع من عالية الأسوار حيث مواقعُ الأباطرةِ والملوك، وأنّ أقصى طموحه هو ان يتهالك باكياً على كتفٍ حانية، وأنّه في استدارته يشبه اللُّغْمَ، ولكنه لغمٌ بمواصفات استثنائية تختلف عن مواصفات الألغام التقليدية المستخدمة في حروب البشر ضد إخوانهم: فهو لا يدمّر العربات ولا يقتل الأشخاص، ولكنّه لغم يقتل صاحبَه؛ إنّه والحالة هذه لغمٌ مصنوع لأغراض انتحارية. ولذلك أُطَمْئِنُ كل المستريبين بأنّ لغمي الحساس هذا لم يكن سبباً في أيّ انفجار إرهابي في أيّة بقعة من بقاع العالم. فهل يستحق رأسٌ بهذه المواصفات ضرباتِ المطارق كأنه مسمارٌ على لوح من الخشب؟ وهل من العدل أن تُؤخذ الرؤوسُ المصنوعة في مصانع المحبّة والسلام بجريرة الرؤوس المصنوعة في مصانع الدبابات، وأن تُعامَلَ وكأنّها نوعٌ من أسلحة التدمير الشامل فتطولها القراراتُ الدوليّة بالإبادة والتدمير؟

أيّها الدكتور الفاضل:

إن آلام المِحفار الذي يحفر في جمجمتي ليلَ نهار تهون إزاء آلام جراحات الآلاف من الأبرياء الذين يتساقطون يومياً في وطني دونَ أن يجدوا ضمادةً توقف نزيفَهم. ومن بين أولئك خيرة المثقّفين والأدباء، ولعلّكم سمعتم بأنّ مناجل الحصار الدوائي قد حصدتْ خلال هذا العام أرواحَ أربعةٍ من أدبائنا البارزين هم محمود جنداري وعبد الجبار العمر وإسماعيل عيسى وقيس لفتة مراد... وأخشى ما أخشاه أن يكون موسم حصاد الموت المقبل أكثرَ خصوبةً.

إنّ انكسار قلم واحد يعادل عطل محطةٍ لتوليد الطاقة الكهربائية. فَوَالَهفي عليك أيّها العراق المحزون الذي تتكسّرُ أقلامك حِزَماً.. حِزَماً.

وبعد.. فهذه الأسطر ليست استعطافاً؛ فهذا النزيفُ الدافقُ لا توقفه ربتةٌ من الحنان، ولكن حسبها أنْ تقول: إنّنا أصبحنا على هذه النّار نطبخ قصائدنا.

... هذه الرسالة هي الحمامةُ الرابعة التي أفلح في إيصالها إليكَ عبر جدار الحصار. وقد كنت في رسائلي السابقة قد طلبت منكم أن ترسلوا لي أعداد **الآداب** التي تُنشر فيها قصائدي، وكنتُ ومازلت أعتبر ذلك مساهمةً منكم في كسر قفل من أقفال الحصار الثقافي الذي يعتبر المطبوعات في عداد المواد المحرّمة دولياً. ولكنّي لم أتسلّم منكم إلى الآن شيئاً، ولذلك أكرّر طلبي بإلحاح مملٍّ مرّة، ومرّتين، وألفاً، وعذري أنكم خير من يتفهّم معاناة المحاصر. وسوف لن ننسى مدى العمر أنكم كنتم في طليعة المتعاطفين مع آلامنا.. وأنّنا من خلف الجدار الفلّيني السميك مازلنا نسمع صوتكم مطالبين بإيقاف تنفيذ حكم الإعدام بشعب بريء.

وفقكم الله لكل خير.. والسلام عليكم

ليث الصندوق
بغداد